المحور الثاني: مذاهب فلسفة القانون

لقد تعرضت مذاهب فلسفية عديدة لتحديد جوهر القانون أو محتوى القاعدة القانونية ومصادره من منطلقات فكرية فلسفية شكلت تيارات ومذاهب فلسفية مختلفة، صنفها الفلاسفة والفقهاء إلى مدرستين رئيسيتين وتيار مختلط، يتم توضيحهم على النحو التالي:

المدرسة الشكليـة

تعتبر المذاهب الشكلية هي التي تكتفي بالمظهر الخارجي للقاعدة القانونية فلا تنظر إلا إلى الشكل الذي تخرج به هذه القاعدة إلى الوجود في صورة ملزمة و لذلك فهي ترجع تكوين القاعدة القانونية إلى السلطة التي اكتسبت هذه القاعدة عن طريقها قوة الإلزام، و قد نادى بهذه المذاهب الشكلية كثير من الفقهاء و الفلاسفـة منهم: أوستن، هيجل، كلسن ....الخ

أولا: مذهب جون أوستن: الفيلسوف أوستن انجليزي، استمد مذهبه من الفلاسفة اليونانيين الذين يرون أن القانون مبدأ للقوة والفكرة التي يقوم عليها هذا المذهب هي اعتبار القانون بأنه أمر ونهي يصدره الحاكم استنادا إلى سلطة سياسية ويوجه إلى المحكومين و يتبعه جزاء .

ومن هذا التعريف يتبين أنه لكي يوجد قانون لابد من توفر الشروط التالية:

1 -وجود أمـر ونهي: وجب حسب أوستن أن تكون القاعدة القانونية آمرة أو ناهية فالقانون ليس نصيحة يستطيع الأفراد الأخذ بها أو تركها متى يشاؤون، وهذا يترتب على عنصر الإلزام.

2 -وجود حاكم سياسي: القانون في نظر أوستن لا يقوم إلا في مجتمع سياسي يستند في تنظيمه إلى وجود هيئة عليا حاكمة لها السيادة السياسية في المجتمع وتصدر الأوامر والنواهي، وهيئة أخرى خاضعة لها.

3 -وجود جزاء: فكرة الجزاء لدى أوستن هي فكرة جوهرية في القاعدة القانونية دونها لا توجد قاعدة قانونية .

- **نقد مذهب أوستن :**

1 -أخلط أوستن بين القانون والدولة عندما قال أن القانون لا يوجد إلا في المجتمع السياسي بينما في الحقيقة أن القانون ظاهرة اجتماعية .

2 -وأخلط بين القانون والقوة فالقوة تتمثل في الجزاء حيث جعله الأساس الوحيد للقانون وربطه بإرادة الحاكم .

3 -التشريع المصدر الوحيد للقانون حسب أوستن أي لا تكون القاعدة القانونية إلا إذا صدرت من الحاكم وهذا إهمال للعرف.

4 -إنكار حق القانون على القانون الدولي العام فحسب أوستن لا يوجد سلطة عليا في المجتمع الدولي وفي الحقيقة هي موجودة فالقانون الدولي قانون بالمعنى الفني الصحيح. 5

5 -تجريد القانون الدستوري من صفة القانون وفي ذلك رد الفقهاء على أوستن بأن الدستور لا يصنعه الحاكم وإنما لجنة تمثل الأمة، و مصدر السلطات هو الأمة.

ثانيا: مذهب الشرح على المتون : ساهم في تكوينها عدة فقهاء كانت معتمدة منذ القرن 12م، وترجع تسمية هذا المذهب إلى الطريقة التي يعتمدها أصحاب هذا المنهج في تفسير وشرح تقنين نابليون نصا نصا أو متنا متنا مع الحفاظ على الترتيب الذي جاءت به نصوص هذا التقنين لذا أطلق عليه مذهب الالتزام بالنصوص نظرا لالتزامهم بتقنين نابليون دون غيره لاعتبار هذا التقنين تضمن كل الأحكام .

- **أسس هذا المذهب:**

تقديس النصوص التشريعية: لقد أحدث تقنين نابليون جوا من الإبهار والإعجاب دفع برجال القانون إلى قصر مفهوم القانون على التقنين فهو الوجه المعبر للقانون، وإرادة المشرع ماهي إلا ترجمة للإرادة الدولة، كما أن هذا التقنين كان شاملا كاملا لجميع القواعد بعد أن وجد القانون السائد في شمال فرنسا والقانون السائد في الجنوب، باعتبار التشريع هو المصدر الوحيد للقانون ومفاده هو أن الفقهاء يقرون بأن التشريع المصدر الوحيد والأوحد للنظام القانوني حيث لا يمكن الأخذ بالمصادر الأخرى ذلك أن القانون يعتمد أساسا على النصوص المكتوبة و المتمثلة في التشريع .

- **نقد المذهب :**

1 -يعتبر أن التشريع هو المصدر الوحيد للقانون وهذا خطأ في القانون لوجود مصادر أخرى متعددة.

2 -التقيد بإرادة المشرع منع البحث عن الإرادة المفترضة لذا أصبحت المحاكم ترفض كل طلب لا يستند لنص صريح.

3 -المذهب يخدم الديكتاتورية و يجسد فكرة " الحاكم ظل الله في الأرض .

4 -إن فكرة الخطأ الناجم عن التفسير والذي يرجع على المفسر دون المشرع مبالغ فيها إذ أن المشرع بشر يمكنه أن يخطئ مثله مثل المفسر.

ثالثا: مذهب هيجل : يرى الفيلسوف الألماني هيجل بأن الدولة تنشأ حينما تظهر عامة حقيقية معترف بها قادرة على توحيد الأمة في تحقيق مهمتها التاريخية، كما أنه يرفض فكرة العقد الاجتماعي كأساس لنشأة الدولة، فالقانون يستمد شرعيته و أساس قوته عن طريق صدوره عن الحاكم.

- **النتائج المترتبة عنه :**

1 -تدعيم وتبرير الاستبداد المطلق بما أن إرادة الحاكم هي القانون الواجب النفاذ.

2 -التشريع هو المصدر الوحيد للقانون باعتباره المعبر عن إرادة الحاكم .

3 -عدم اعتراف هيجل بالقانون الدولي، فالقوة هي التي تحكم العلاقات بين الدول.

4 -عدم الاعتراف بالقانون الدستوري فالحاكم له السلطة المطلقة في علاقته مع الأفراد.

- **نقد المذهب :**

1 -اكتفى هيجل بالمظهر الخارجي للقانون ولم يبحث في جوهره وأثر العوامل في نشأته.

2 -فلسفة هيجل نزعة متطرفة تدعو الشعب الألماني للسيطرة على العالم وهي التي طورتها النازية لاحقا.

3 -لا يعترف هيجل بالقانون الدولي ويرى أن الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتنفيذ إرادة الدولة على المستوى الدولي وهذا ما يترتب عنه اضطراب العلاقات الدولية.

4 -الادعاء بوجود مصدر وحيد للقانون هو التشريع، في حين توجد للقانون مصادر أخرى.

رابعا: مذهب كلسن: استخدم المنطق و استبعاد الواقع وهو ما قامت عليه فلسفة القانون في حقبة كلسن حيث كان يدرس القانون مثل الرياضيات والعلوم المنطقية كما استبعد جوهر القانون ودرس الشكل فقط.

- **أساس المذهب :**

1 -استبعاد العناصر غير القانونية ومنها المثالية مثل العدالة، كما استبعدا كلسن فكرة القانون الطبيعي فهو حس غير علمي فقواعد الطبيعة إما من وضع الله أوهي مستمدة من العقل البشري، فالقانون حسب كلسن يشكل هرما يجب أن يحترم الأدنى منه الأعلى مرتبة.

2 -وحدة القانون والدولة فحسب كلسن لا يوجد هناك أشكال حول علاقة الدولة بالقانون، فهما شيء واحد فالدولة ليست شخصا معنويا وإنما هي مجموعة القواعد القانونية على شكل هرم.

- **نقد المذهب:**

1 -لايمكن اعتبار الالتزام والمعاملات الفردية مصدر للقانون لأنها تفتقد العمومية والتجريد، ووحدة الدولة والقانون لا يستند إلى أي أساس قانوني.

2 -أهمل قواعد القانون الدولي العام حيث سلم بخضوع كل الدول لدساتيرها.

المدرسة الموضوعية

إن دراسة المدرسة الموضوعية للقاعدة القانونية ينحصر أساسا في الظروف والعوامل الاجتماعية والمثالية والبيئة التي تؤثر في تكوين القاعدة القانونية وتطورها، ومن ثم فإنها تربط بين هذه العوامل والقانون، وقد أفرزت المدرسة الموضوعية مذهبين نوضحهما كما يلي:

أولا: المذهب المثالي: إن هذا المذهب يؤمن بأن القاعدة القانونية هي المثل الأعلى للعدل الذي يستنتجه الفرد وحده، وقد سادت أفكار هذا التيار حتى مطلع القرن 19م، حيث ينقسم إلى ما يلي :

1) مذهب القانون الطبيعي: وهو مجموعة القوانين العامة والثابتة التي لا تختلف ولا تتغير بتغير الزمان والمكان وهي من وضع الله أودعها في الكون ويكشف عنها الإنسان بعقله، ومن أمثلة هذا الإعتقاد نجد.

القانون الطبيعي عند اليونان: حيث يمثل القانون الطبيعي عندهم صورة من صور الطبيعة وهو من وضع الخالق ومن هنا فهو عادل أو بالأحرى مقياسا لمدى العدل للقوانين الوضعية إذ كلما اقتربت هذه القوانين الوضعية وتطابقت وتشابهت مع القانون الطبيعي كلما أصبحت عادلة، لذا نادى اليونان بوجوب التقيد بقواعد القانون الطبيعي والتحرر من إرادة الدولة لأن القانون الطبيعي أسمي من هذه الإرادة.

القانون الطبيعي عند الرمان : حيث اعتبروا الرمانيين أن القانون مستمد من الطبيعة وينطبق على كافة الشعوب بحيث أن الطبيعة والعقل هما اللذان يفرضانه، غير أن الفقهاء الرمان جعلوا فكرة قانون الطبيعة فكرة القانون .

2) **مذهب القانون الطبيعي ذو المضمون المتغير** : اعتبر أنصار هذا المذهب بأنه لا بد للمشرع من مثل عليا للعدل يهتدي بها، لكن مضمونها متغير، فالعدل يستند إلى القانون الطبيعي بفكرة الخلود لكن مضمونة وطرق تحقيقه متغيرة ومختلفة حيث يتفق في المضمون مع المذهب التقليدي في أمر أن القانون الطبيعي يستخلصه الإنسان بعقله.

- **نقد فكرة القانون الطبيعي:** لم تلق هذه الفكرة قبول لدى كثير من الفقهاء في العصر الحديث لأنهم رأوا أنها تؤدي إلى إنكار الفكرة القانونية الطبيعية ذاتها (ثبات العدل).

ثانيا: المذهب الواقعي: يركز هذا المذهب على الملاحظة والتجربة، لأنه يرى أن جوهر القانون هو ذلك الواقع الملموس الذي يثبت بالمشاهدة أو الملاحظة والتجربة، وقد أفرز هذا المذهب، مذاهب أخرى نختصرها فيما يلي:

1) **المذهب التاريخي:** أساسه إنكار وجود القانون الطبيعي، فالقانون يتكون بمرور الزمن ولا توجد قواعد ثابتة وخالدة بل القانون وليد البيئة الاجتماعية.

- **نقد المذهب :**

- إنكار دور العقل والإرادة في إنشاء وتكوين القواعد القانونية، وإهماله لدورالأفراد.
- ادعائه بأن القانون وليد البيئة والظروف لنشأته الخاصة في كل مجتمع على حدى .
- اعتبار العرف المصدر المثالي للقانون لنشأته في ضمير الجماعة.

2) **مذهب التضامن الاجتماعي:** يسعى الفقيه ديجي إلى ربط القانون بالتضامن الاجتماعي انطلاقا من تعاليم التحليل الاجتماعي، أما مضمون نظرية ديجي في التضامن الاجتماعي فمحتواها أن الإنسان قد عاش في الماضي كما يعيش الآن مع غيره في حياة اجتماعية، و المجتمع بالنسبة له يعتبر حقيقة واقعية، وإن القاعدة القانونية لا تقوم على أساس إجبار الدولة كافة احترامها كما تنادي بذلك المدرسة الشكلية التي ترجع القانون إلى مشيئة الدولة ولا تلجأ القاعدة القانونية إلى مثل أعلى كما ينادي التيار المثالي لكن القاعدة التي يشعر أفراد المجتمع بأنها ضرورية للحفاظ على تضامنهم الاجتماعي وأن من العدل استعمال الجبر والقوة لكفالة احترامها والانصياع لها.

- **نقد هذا المذهب :**

• إخضاع ديجي القانون للمنهج العلمي التجريبي المتعلق بالعلوم الطبيعية التي تهدف إلى ما هو كائن عكس العلوم الاجتماعية التي تهدف إلى ما هو كائن وما سيكون.

• الوقوع في التناقض لعدم الالتزام بالأسباب الواقعية التجريبية.

• جعل ديجي الشعور بالعدل الأساس الثاني للقاعدة القانونية .

المدرسة المختلطـة

لقد نشأت المدرسة المختلطة لتوفق بين فكرتين أساسيتين هما فكرة شكل القاعدة القانونية وفكرة جوهرها، وسندرس في هذا المقام الوسطية التي استطاعت المدرسة المختلطة أن توفق ما بين المدرسة الشكلية والمدرسة الموضوعية .

مذهب جيني: لقد أطلق على مذهب جيني مذهب العلم والصياغة أو اتجاه البحث العلمي الذي لم يأت بشيء جديد سوى التوفيق ما بين فكرتي المدرسة الشكلية والمدرسة الموضوعية وهذا ما أقره الفقيه الفرنسي " فرانسوا جيني" إذ تأثر بالمدرسة الشكلية من حيث أن شكل القاعدة القانونية القالب، كما تجلى تأثر جيني بالمدرسة الموضوعية من حيث أن أصل القاعدة القانونية مستمد من جملة الحقائق الواقعية التي تؤكدها الملاحظة وتحققها التجربة.

عناصر المذهب :

أ/ عنصر العلم : العلم عند جيني ليس ذلك المفهوم القائم على الملاحظة والتجربة فحسب، بل يضيف له التفكير والتأمل، لذا فهو يجمع بين فلسفة المادة والفلسفة المثالية في تفسير أصل وغاية القانون، ففي نظر جيني فإن القانون يقوم على مجموعة من الحقائق كما يلي:

- **حقائق طبيعية (واقعية)**: وهي الظروف المحيطة بالفرد سواء كانت مادية أو معنوية.
- **حقائق تاريخية:** من حيث استفادة القاعدة القانونية من الماضي فهي تراث إنساني مشترك.
- **حقائق عقلية:** وتعتبر الجوهر الأساسي للقانون الطبيعي وبواسطتها يتم استنباط الحقوق.
- **حقائق مثالية:** وأساسها العاطفة وليس العقل أي ما يتمناه العقل من سمو وتحقيق العدل وهي مُثل أخلاقية تعبر عن الغاية السامية للقانون.

ب/ عنصر الصياغة: الصياغة تعني تحويل المادة التي يتكون منها القانون إلى قواعد قانونية عامة ومجردة وصالحة للتطبيق في الحياة العملية وتطبيقها ملزم للجميع، حيث نجد نوعين من الصياغة: صياغة مادية أين يستعمل المشرع الكم أو الرقم الحسابي مثل قوله سن الرشد 19 سنة، وصياغة معنوية أين يعتمد فيها المشرع على العمل الذهني آخذا بعين الاعتبار القرائن لتحقيق مبدأ استقرار المعاملات في المجتمع.

- **نـقـد الـمـذهـب :**

أن الحقائق التي ذكرها جيني في عنصر العلم لا يسلم له بأنها كلها حقائق علمية بالمعنى الصحيح،

حيث يصعب إيجاد فرق بين الحقائق المثالية والحقائق العقلية لأن الحقائق المثالية تستنبط من العقل وبالتالي هي نفسها حقائق عقلية .